المكتبة الإسلامية :

تقويم الفكر الدينى
وصلته بالقومية العربية

للأستاذ محمود الشرقاوى

ينتظم فصول هذا الكتاب فكرة جديدة ، لم تحظ بعد بما ينبغى لها من بحث ودراسة وابراز ؛ وهى فكرة الارتباط الوثيق بين دعوة القومية العربية والدين الذى تعتنقه غالبية سكان هذه المنطقة من العالم .

ويبدو أن الأستاذ محمود الشرقاوى قد لاحظ أن مناهج كثيرين من الباحثين فى فكرة القومية العربية تسقط من حسابها الدين - كمقوم من مقومات القومية العربية ، أو هى تمر به - إذا اعترفت به - مروراً سريعاً لا يكاد يكشف ما للفكرة الدينية من أواصر قوية وعريقة تربطها بفكرة القومية العربية .

وقد أخذ الأستاذ الشرقاوى على عاتقه أن يتقدم صفوف الفاقهين للفكرتين معاً ليبرز حقيقة ينبغى لها أن تظهر وتسطع ؛ وهى إن دينا تعتنقه الغالبية العظمى من أبناء المنطقة العربية (ويعترف بأديان الأقليات الأخرى ، ويقدس أنبياءها ، ويؤمن برسالاتها) إن دينا كهذا تقضى طبائع الأشياء بأن يسهم بدور فعال ورئيسى فى تشكيل القومية العربية على مستوى إنسانى النزعة والدوافع والأهداف .

ومن أجل إفساح الطريق أمام الدين ليؤدى دوره هذا الخطير يقدم محمود الشرقاوى رسالته عن « تقويم الفكر الدينى وصلته بالقومية العربية » .

وفى خطواته الأولى فى صدر كتابه لا يتردد فى أن يواجه التساؤل الذى قد يثور فى أذهان البعض عن حسن نية ، أو يثيره البعض عن سوء قصد :

ماموقف الإسلام من القومية العربية ؟ وهو الذى (يدعو للوحدة الإسلامية ولا يفرق بين جنس وجنس أو بين لون ولون ؟) . . وهنا يتقدم محمود الشرقاوى ليؤكد أنه ليس ثمة تعارض أو تنافر بين الإسلام والقومية العربية ، بل إن (القومية العربية من الممكن أن تكون وسيلة للوحدة الإسلامية وفى الظروف القائمة من الاعتبارات مايجعل تحقيق الوحدة الإسلامية أمراً بعيد التحقق فى المستقبل القريب . . فكل تقريب من الوحدة قائم على أسس طبيعيه ، ومشاركة عاطفية بين مجموعة من الدول العربية ، يقرب ذلك اليوم الذى يجعل من الممكن التفكير فى وحدة إسلامية شاملة) .

بيد أنه لكى تكون خطواتنا سديدة فى الطريق إلى هذه الوحدة الشاملة ، يجب أن نواجه الحقيقة بما ينبغى لها من وعى وسلاح ، ذلك أن (كثيراً من المفاهيم المتداولة أو الثابتة عن الفكر الدينى مفاهيم غير مستقيمة وغير صحيحة ، بل هى بعيدة بعداً ، قد يكون يسيراً فى بعضها ، وقد يكون كبيراً فى بعضها الآخر ، عن الفهم المستقيم لشريعة الإسلام ، وإن هذا الفكر الدينى يحتاج إلى تقويم هذه المفاهيم المنحرفة ، حتى يمكن أن يكون الدين - كما يجب أن يكون - أولى الركائز فى بنيان القومية العربية) .

وإذا كانت القومية - فى مفهومها الحديث - فكرة حضارية تقدمية صاعدة فإن من واجبنا أن نواجه تساؤل بعضهم . . هل روح الإسلام وغايته العليا تعارض سير الحضارة وتقدم العالم وتلزم البشرية بالوقوف عند حال واحدة لا تتعداها) ؟

وينبرى الشرقاوى ليجيب على هذا التساؤل فى حسم (إن الإسلام لا يتعارض أبداً مع سير البشرية وتحولها . . . وإنه دين واسع الأفق ، نستطيع أن نوفق بينه وبين كل مظهر من مظاهر الحضارة ، وأن نجد فى نصوصه ما يساير الأطوار المختلفة التى تتخطاها البشرية فى عصورها المتباينة) .

ويمر الأستاذ الشرقاوى بمراحل التشريع الإسلامى فى سرعة واعية لينظم عقدا بسيطا جذابا من آراء الصحابة والتابعين والعلماء ، يشهد بما يتميز به هذا الدين من مرونة وسعة وطواعية لكل ما فيه خير

الناس ، فإلى جانب القرآن والسنة والإجماع تحتفل الشريعة بعرف الناس ، وتذهب بعض المذاهب بهذا الأصل إلى أبعد مدى ؛ فيخصصون الحكم العام بالعرف الخاص . وبعد أن يتأمل الشرقاوى فى أمر هذه الملايين المنتشرة فى أنحاء العالم من المسلمين (ومن حقهم بل من واجبهم أن تكون هذه الشريعة فى أصولها العامة مصدر تشريعهم ومعاملاتهم وتنظيم مجتمعهم) . بعد أن يتأمل هذا لا يملك نفسه من أن يهتف (أى عسر كان يجده المشرعون ، ويجده هؤلاء المسلمون إذا لم تكن الشريعة قد راعت العرف والعادة لهذه المجتمعات المختلفة المتباينة من الناس والأجناس ؟) .

وأى يسر يحققه هذا الأصل العظيم من أصول الشريعة الذى يجعل للعرف ما رأينا من الاعتبار والتقدير) .

ثم يستعرض الشرقاوى ما دار حول مبدأ الاجتهاد من جدل ، وما يدعم قيامه من أدلة وبراهين فى الكتاب والسنة ، وفى أقوال الصحابة والتابعين والعلماء ، وبهذه المبادئ والأصول التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية ، ومن بينها المصالح المرسلة يمكن (تدبير مصالح الناس على مقتضى الشريعة) . وعلى ضوء هذه الأسس والمبادئ ، دعا الشيخ محمد عبده (دعوته لتعديل الأحكام التى وردت فى كتب الفقهاء على أساس من مصالح الناس المتجددة ، وعلى فهم لروح الشريعة ، وأصولها وأدلتها ومراميها) .

ويأخذ الأستاذ الشرقاوى فى استعراض أمثلة رائعة من فقه الصحابة ، ثم يسوق أمثلة أخرى من اختلاف الفقهاء والعلماء ، وكلهم يشهدون الكتاب والسنة ، وأصول الشريعة الأخرى ، فى استنباط أحكامهم . ثم يعرض الشرقاوى لموقف الشريعة الإسلامية من مسائل وشئون (كثر الجدل فيها والتحدث عنها فى السنوات الأخيرة خاصة ، وشغل بها الناس منذ بدأ المجتمع العربى والإسلامى يسرع فى تحوله وتطوره) من بينها ما يتصل بالمرأة والأسرة كالخطبة ، ومسألة تحديد النسل ، وزواج البنت ، والتعويض عن فسخ الخطبة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق أمام القاضى ، والطلاق الثلاث ، ومسألة المحلل ، وترجمة القرآن . وقد استطاع الأستاذ الشرقاوى أن يكشف بأضوائه عما تنطوى عليه (شريعة الإسلام من اليسر والمطاوعة لحيوات الناس المختلفة ، ومجتمعاتهم

المتباينة ، وما يمكن أن يتحقق عن هذا الطريق من التوافق بين تطور الحياة والناس ، وتقدم الحضارة ، وبين أصول الدين وجوهره وحقائقه الباقية) .

وبعد فالموضوع - كما قلنا - جديد وفى حاجة إلى تضافر جهود الباحثين والدارسين من رجال الفكر والدين .

وخليق بالأستاذ الشرقاوى - وهو من رواد هذه الساحة - أن يواصل - فى طليعتهم - أداء رسالته فى (تقويم الفكر الدينى) . . وإنا لنتنظر من قلمه المخلص - فى ميدانه هذا - الشئ الكثير ؟